تشخيص وتحليل البوادر الأولى للهجرة الجزائرية

د. فوزية زنقوفي
جامعة قالمة

ملخص:

لقد كان للحرب العالمية الأولى الفضل الأول في فتح باب الهجرة أمام الجزائريين إلى فرنسا، حيث أنّ الهجرة الجزائرية خلال الحرب العالمية الأولى لم تحدث طواعية، وإنما كانت إجبارية، فقد اقتضت ظروف الحرب أن تجنِّد السلطة الفرنسية أعدادًا هائلة للدفاع عن فرنسا ولتعويض العمال الفرنسيين المجندين، وكان تصرّف السلطة هذا إيذانا بظهور مشكلة الهجرة الجزائرية إلى فرنسا، التي أثارت جدلا بين المعمرين والنواب الجزائريين، ولازالت إلى يومنا هذا سببا في الكثير من الخلافات بين الدولتين الجزائرية والفرنسية.

إنّ الإقامة في فرنسا قد أتاحت للمهاجرين الجزائريّين فرصة الاحتكاك بالمجتمع الفرنسي ومحاكاته في اللباس والأكل والشرب، ومكّنتهم من التعرف على عقلية الطبقة العاملة من فرنسيين وأوروبّيّين، والاطّلاع على الاتجاهات السياسية في جو من الحرية المفقودة في بلادهم.

حينئذ كانوا يتساءلون عن مفهوم الحرية والديمقراطية والشيوعية، وعن معنى حق الشعوب في تقرير مصيرها، وكان الأمر ينتهي بالكثير منهم إلى الانخراط في النقابات والأحزاب السياسية ذات الاتجاهات التي كانت تجد صدى في نفوسهم.

وعليه فإنّ السياسة الاستعمارية سعت لطمس مقوّمات الشعب الجزائري المتمثلة في فكرة العروبة والإسلام، لذلك كانت عملية الهجرة تتّجه قصد تحسين مستوى المعيشة المتمثّل خاصة في ضعف القدرة الشرائية وصعوبة الحياة وسط ظروف تميّزت في بعض المناطق بقساوة البيئة الصحراوية، دون إغفال عملية الاستعمار الفلاحي .

لأجل ذلك تتحدّد معالم موضوعنا في الكشف عن البوادر الأولى التي شجّعت على فتح باب الهجرة أمام الجزائريين إلى فرنسا، وكيف تدرّج التطور المرحلي للهجرة؟، وماهي الدوافع الأساسية للهجرة؟ وكيف برز موقف الحركات الإصلاحية في أوساط المهاجرين بفرنسا؟.

الكلمات المفتاحية: الهجرة الجزائرية، المهاجرون الجزائريون، التطوّر المرحلي.

Abstract

The World War I had the first credit to open the door for immigration of the Algerians to France, since the Algerian migration during World War I did not occur voluntarily, but was compulsory, the circumstances of the war required that the French authority enlist enormous numbers to defend France and to compensate the French workers recruited, This behavior marked the emergence of the problem of Algerian immigration to France, which has aroused controversy among the Algerian centenarians and deputies, and continues to this day causing many disputes between the two Algerian and French states.

Residency in France has allowed Algerian immigrants to come into contact with French society, so they started dressing, eating and drinking like them, and enabled them to learn about the mentality of the working class French and European alike, they also started learning about political trends in an atmosphere filled with freedom which they have lost in their country.

At that time, they started wondering about the concept of freedom, democracy and communism, and the meaning of the right of peoples to self-determination, and many of them ended up

joining unions and political parties with trends that matched with their way of thinking and beliefs.
Thus, the colonial policy sought to obliterate the Algerian people beliefs, namely the idea of Arabism and Islam, so the migration process was aimed at improving the standard of living represented by the low purchasing power and the difficulty of life espacially in some areas that were characterized with their harsh desert environment, without neglecting the process of agricultural colonization.
For this reason, the subject of our topic revolves around exploring the first reasons that encouraged the starts of immigration of Algerians to France, and how to graduate the progressive development of immigration? The main reasons for immigration? And How did the position of reform movements among immigrants in France emerge?
Keywords: Algerian immigration, Algerian immigrants, phased development.

مقدمة

شكّلت الجالية الجزائرية في فرنسا واقعا اجتماعيا وثقافيا وسياسيا لا يمكن تجاوزه، بسبب الكتلة الديمغرافية الهائلة والفترة الزمنية الطويلة التي واكبت هجرتها وتعدد مواطنها من حيث المنطلق والاستقرار.

وتُعدّ الهجرة إلى فرنسا من الهجرات القديمة التي كان منطلقها من تونس وكذلك من الجزائر، حيث اشتغل المهاجرون في أعمال البناء وفي المزارع، لذلك كان سبب هذه الهجرة هو تحسين أحوال بعض المهاجرين الذين هاجروا نحو فرنسا من تونس في بداية الخمسينات من طرف مجموعات ممّن يملكون روح المبادرة. وأصبحت الهجرة على شكل أمواج، لما رأوه من نجاح المهاجرين في تغيير أوضاعهم الاجتماعية إلى الأحسن. والجدير بالذكر أنّ اتخاذ فرنسا لبعض القوانين التي كانت تسعى من خلالها إلى أخذ العمال إلى فرنسا لسدّ الفراغ العمّالي، ساعدها على توفير مناصب شغل في فرنسا، حتى أنّ المهاجر الجزائري سرعان ما يوفّر منصب شغل ويندمج في الحياة العملية.

وانطلاقا من هذا الطرح، تتحدّد معالم موضوعنا في الكشف عن البوادر الأولى التي شجّعت على فتح باب الهجرة أمام الجزائريين إلى فرنسا، وكيف تدرّج التطور المرحلي للهجرة؟، وماهي الدوافع الأساسية للهجرة؟ وكيف برز موقف الحركات الإصلاحية في أوساط المهاجرين بفرنسا؟.

1- الهجرة قبل وخلال الحرب العالمية الأولى

يعرّف جونار GONNARD الهجرة بأنها ترك بلد والالتحاق بغيره... بقصد الإقامة الدائمة، وغالبا بقصد تحسين الوضعية بالعمل. (1)

انطلاقا من هذا التعريف، يصعب علينا تحديد سنة بعينها كبداية للهجرة نحو فرنسا، ولكن يتّفق الذين كتبوا عن الهجرة الجزائرية إلى فرنسا أنها بدأت قبل سنة 1874م، وهي السنة التي صدر فيها مرسوم يقيّد الهجرة إلى فرنسا بالحصول على "إذن بالسفر". (2)

وعلى إثر شكاوى أحد النواب الفرنسيين من سوء وضعية المهاجرين في منطقة با دي كاليه Pas de Calais، أرسلت الولاية العامة لجنة سنة 1914م للتأكد من الحقيقة. (3)

وقد أوصت هذه اللجنة بتشجيع الجزائريين على الهجرة لعدّة اعتبارات، منها أنهم يشكّلون في نظر أرباب الصناعة الفرنسية يدًا عاملة احتياطية، تُستخدم بوجه خاص وقت الإضراب، وأنّ اليد العاملة الجزائرية ليست في مستوى المنافسة لليد العاملة الفرنسية، إضافة إلى الحاجة إلى هذه اليد لسدّ حاجيات الصناعة الفرنسية.

لقد كان للحرب العالمية الأولى الفضل الأول في فتح باب الهجرة أمام الجزائريين إلى فرنسا، فخلال الحرب تزايد حجم الهجرة الجزائرية بسبب:

- ارتفاع القيد عن الهجرة بصدور قانون 1914م، ممّا شجّع الهجرة التلقائية إلى فرنسا.

- الإشراف على تنظيم الهجرة سنة 1916م من قبل السلطة، حيث أُسّست مصلحة عمال المستعمرات التي كانت تشرف عليها وزارة الحربية الفرنسية، والتي كانت تتولّى هذه المصلحة تسجيل العمال في الجزائر ونقلهم إلى فرنسا وتوزيعهم.

- إلحاق الشباب الجزائريين بوحدات الجيش الفرنسي قبل مرحلة الخدمة، بحيث أنّ دفعة سنة 1917م قد أُجبرت على الالتحاق بالعمل العسكري قبل الأوان بسنة. (4)

وتجدر الإشارة إلى أنّ الهجرة الجزائرية خلال الحرب العالمية الأولى لم تحدث طواعية، وإنما كانت إجبارية، حيث اقتضت ظروف الحرب أن تجنِّد السلطة الفرنسية أعدادًا هائلة للدفاع عن فرنسا ولتعويض العمال الفرنسيين المجندين، وكان تصرّف السلطة هذا إيذانا بظهور مشكلة الهجرة الجزائرية إلى فرنسا، التي أثارت جدلا بين المعمرين والنواب الجزائريين، ولازالت إلى يومنا هذا سببا في الكثير من الخلافات بين الدولتين الجزائرية والفرنسية. (5)

- تختلف المصادر في تقدير عدد العمال الجزائريين في المصانع الفرنسية أثناء الحرب، فتراوحت التقديرات بنحو 78566 عاملا، بينما جعل ميراكسيول عددهم يتراوح بين 120000 و 130000 عاملا أما في مجلة "E.T.I" لسنة 1936م فنجد عددهم 142000 عاملا.

2- الهجرة بين الحربين

كتب فرحات عباس قائلا: "إنّ للأحداث الكبرى نتائجا غير متوقعة على الرجال، فقد كانت من نتائج الحرب الكبرى أن تعرّف الجزائريون على فرنسا أثناء كفاحهم عنها، حتى بدت لهم كأنها أرض الميعاد". (6)

بمعنى أنّ المهاجرين إلى فرنسا بين 1914م و1919م كانوا قد اكتشفوا كسابقيهم بين 1874م و1914م حياة جديدة تختلف عن حياتهم البائسة في بلادهم، لأنّ الإقامة في فرنسا قد أتاحت لهم فرصة الاحتكاك بالمجتمع الفرنسي ومحاكاته في اللباس والأكل والشرب، ومكّنتهم من التعرف على عقلية الطبقة العاملة من فرنسيين وأوروبّيّين، والاطّلاع على الاتجاهات السياسية في جو من الحرية المفقودة في بلادهم. (7)

إنّ الحياة في فرنسا كانت تحمل المهاجرين على الفعل والمشاركة وعلى التساؤل أحيانا، فمخاطبة الفرنسيين تستوجب منهم الإلمام بمبادئ اللغة الفرنسية، وأنّ الدفاع عن حقوقهم يتطلب منهم العمل داخل المنظمات النقابية الفرنسية، كما كان عليهم فهم ما يجري حولهم من تجمّعات ومظاهرات وغيرها، وكان هناك من يسألهم عن جنسيتهم وبلادهم، فينحرجون من الإجابة أحيانا، لكن كلّ ذلك كان يثير حنينهم الوطني ويحرّك فيهم مشاعرهم القومية الكامنة. (8)

حينئذ كانوا يتساءلون عن مفهوم الحرية والديمقراطية والشيوعية، وعن معنى حق الشعوب في تقرير مصيرها، وكان الأمر ينتهي بالكثير منهم إلى الانخراط في النقابات والأحزاب السياسية ذات الاتجاهات التي كانت تجد صدى في نفوسهم. فالرواد أمثال الحاج علي عبد القادر، أحمد بهلول، مصالي الحاج، شبيلة الجيلالي،

معروف محمد وبوقرط علي، كانوا قد بدأوا حياتهم السياسية أعضاءً في النقابات العمالية الفرنسية، ثم أعضاءً بارزين في الحزب الشيوعي الفرنسي. لقد كان دورهم الصحفي والسياسي في فرنسا في مطلع العشرينات معروفا في أوساط المهاجرين، فكانت خطب الحاج عبد القادر يقبل عليا المهاجرون بحماس يفوق إقبالهم على قراءة الجرائد الشيوعية. لكن قد أدّت مساهمة العمال في الحزب الشيوعي وفي النقابات وحضورهم الاجتماعات وقراءة الجرائد، إلى خلق ذهنية جديدة لديهم وتنمية روح التكتل والتضامن لتحقيق مصالحهم المادية، بالإضافة إلى ما كان يعيشه المهاجرون من تأثرات بالمفاهيم والتنظيمات السائدة في فرنسا نفسها. فضلا عن أحداث أخرى خارج فرنسا والتي كانت أخبارها تجد صدى في نفوسهم ويتتبعونها باهتمام، مثل أحداث شمال إفريقيا والمشرق العربي والإسلامي. ومن هذه الأحداث نذكر خاصة الحرب الريفية بالمغرب الأقصى التي أدّت إلى دعم روح التضامن الواسع لدى عمّال شمال إفريقيا. وعندما اتصل الأمير خالد بالمهاجرين في فرنسا ولمس فيهم الشعور الوطني والاستعداد للعمل وروح التضامن، شجعهم ذلك على تأسيس هيئة سياسية تجمع شمل العمال المغاربة وتوحّد بين أجزاء المغرب العربي.

وعندما لاحظ المعمرون ما أصبح عليه المهاجرون بفرنسا من يقظة، ألحّوا على السلطة بالمراقبة والسهر على حمايتهم من الانحراف على حدّ تعبيرهم.

وعلى هذا الأساس صدرت تعليمات وزارية خلال سنة 1924م تنظم الهجرة، وتفرض على المهاجر أن يحصل مقدّما على تعاقد، شهادة طبية بالخلوّ من الأمراض المعدية، القدرة على العمل والحصول على بطاقة تعريف عليها صورته.

وكان لهذا الإجراء أثره الفعال، ذلك أنّ عدد المهاجرين انخفض فجأة إلى 24753 مهاجرًا خلال 1925م، بينما كان عددهم في السنة التي قبلها 71028 مهاجرًا. وكان من نتيجة هذا الإجراء أن ظهرت على نطاق واسع أعمال التزوير في الأوراق المطلوبة. (9)

وأمام الإجراءات التي تحدّ من حرية الهجرة، وأمام موقف المعمرين المتصلب عندها، عمّت هزة استياء كل الدوائر الجزائرية، فقد كان الأمير خالد أوّل من طالب بحرية هجرة الأهالي إلى فرنسا. كما انتقد فرحات عباس من جهته بشدة موقف المعمرين من الهجرة الجزائرية ووصف موقفهم بأنه إجراء تعفسي. (10)

وفي سنة 1926م تقدّم ابن شامي ودهان والسعدي، وهم نواب مسلمون إلى مجلس الدولة في فرنسا بطلب إلغاء جميع الإجراءات، كما طالب بإلغائها المهاجرون بفرنسا في اجتماع نجم الشمال الإفريقي في 20 جوان 1926م، لكن إلغاءها لم يدم سوى شهرين ونصف، وعاد العمل بها بشكل أكثر تعقيدا. (11)

وبالرغم من تلك الإجراءات، فقد تواصلت الهجرة نحو فرنسا إلى أن تضاءلت خلال سنة 1929م بشكل محسوس، بسبب الكساد الاقتصادي في فرنسا وبقية دول العالم. وخلال الثلاثينات بقيت نسبة الذهاب والإياب متأرجحة.

3- التطور المرحلي للهجرة الجزائرية

أ- المرحلة الأولى: (خلال القرن 19م)، تميزت هذه المرحلة بالكثير من الغموض في ما يتعلّق بالهجرة، لكونها كانت في بداياتها الأولى، حيث تركزت خلال هذه الفترة نحو العاصمة، باريس ومرسيليا، خاصة

للعمل في مصانع الزيت والصابون والموانئ، ومع مطلع القرن 20م وصل عددهم ما يقارب 4000 شخص. (12)

ب- المرحلة الثانية: (1912-1919م)، وقد صاحبتها ظروف ساهمت في رفع عدد المهاجرين منها ظروف التجنيد الإجباري، اندلاع الحرب العالمية وتراجع تدفّق العمال من دول الجوار مثل بلجيكا وايطاليا، وسعي فرنسا لتعويض ذلك باليد العاملة من المستعمرات وعلى رأسها الجزائر. (13)

ج- المرحلة الثالثة: (1919-1939م)، وهي مرحلة إعادة البناء في فرنسا التي فقدت في الحرب العالمية الأولى ما يقارب 2 مليون نسمة وبالتالي كانت في حاجة ضرورية لليد العاملة، حتى الأجواء السياسية كانت تستهوي أصحاب الرأي من روّاد الحركة الوطنية، ولا شكّ أنّ نشاط مصالي الحاج ووجود الأمير خالد بعض الوقت ومالك بن نبي، قد ساهم في حركية سياسية عوضتهم شيئا من الغربة والعيش في كنف الروح الوطنية، أين ترسّخ نوع من التقاليد والعلاقات بين العمال الجزائريين. (14)

ورغم بعض الانفتاح من السلطة الفرنسية حول ملف الهجرة خلال الثلاثينات، إلا أنها بقيت تراقبها بشكل قوي وتتدخل من حين لآخر.

د- المرحلة الرابعة: (1939-1954م)، شهدت تراجعا كبيرا خلال الحرب، وخاصة بين 1942-1945م حيث تكاد تنعدم لتنتعش بعد 1945م للحاجة إلى يد عاملة.

4- الدوافع الرئيسية للهجرة

السؤال المطروح، لماذا كان يصرّ الجزائري على الهجرة مادامت الحالة التي تنتظره تشبه في وجوه كثيرة الحالة في بلده؟.

الإجابة كانت تتضارب حول دوافع الهجرة، فالكاتبة أندري ميشيل André Michel تولي الأولوية للسبب الاقتصادي وتوضّح بأنّ الهجرة الجزائرية هي وليدة الجوع (15) بينما يولي مونتاي Montagne الأهمية للدافع النفسي، وهناك من يقول بالدافع الديمغرافي. (16)

والقليل فقط من الدارسين الجزائريين قد تناول الموضوع للكشف عن حقيقة دوافع الهجرة، فمعالجة جوانب الهجرة من دارسين جزائريين أمر ضروري، لأنّ الكشف عن دوافع الهجرة يساعد على تصوّر الوضعية الراهنة للمهاجرين في فرنسا ويحدّد الجانب المتسبب فيها. وسنعرض هذه الدوافع منذ بدايتها حتى الحرب العالمية الثانية، والتي تنحصر في الدوافع الاقتصادية، العسكرية، السياسية والتعليمية، فضلا عن وجود دوافع ثانوية.

أ- الدوافع الاقتصادية

حينما يتحدث بعض الكتاب عن الدوافع الاقتصادية للهجرة الجزائرية، فهم يسرعون للإشارة إلى ارتفاع الأجور في فرنسا وانخفاضها في الجزائر، ونادرا ما يشيرون إلى سلب الأرض من أصحابها الشرعيين وتسليمها إلى أوروبّيّين غرباء أو إلى شركات استغلالية كبرى، وهم لا يشيرون أيضا إلى الاقتصاد الجزائري الذي كان طيلة الاحتلال اقتصادا استعماريا يخدم مصالح قلة من المعمرين، ولا إلى الإهمال الذي حلّ بالأهالي. فهؤلاء الكتّاب يركّزون على عامل الجذب ويهملون عامل الطرد الذي هو الأساس في نظرنا.

لقد كان هدف النظام الفرنسي في الجزائر هو استغلال الأرض وتعميرها بأوروبّيّين من جنسيات مختلفة على حساب الأهالي[17]. وهذا ما يفسر تساوي عدد الأجانب بعدد الفرنسيين منذ الاحتلال إلى 1886م. بل كان عددهم في بعض المناطق يفوق عدد الفرنسيين، كما كان الحال في مدينة وهران سنة 1896م، حيث كان عدد الاسبان في وهران 34032 سنة 1896م مقابل 25523 فرنسيا[18].

وأمام العناصر الأوروبية المتباينة، عمل النظام الفرنسي على صهرها بفتح باب التجنس لهم، وإصدار قانون التجنس الآلي لأبناء المتجنسين الأوروبّيّين، حتى يغلب على الجميع الطابع الفرنسي "الوطني"، ونتيجة لذلك كان عدد الفرنسيين الجدد يبلغ سنويا 10000 فرنسي. وبالرغم من أنّ هذا الإجراء قد جعل الأجانب في تناقص سنة بعد أخرى، إلّا أنه لم يحل دون وجودهم. ولم تحلّ سنة 1936م حتى انخفض عدد الأجانب الأوروبّيّين إلى 135647 نسمة. أمّا عن المساحات الأرضية التي كانت الدولة تمنحها مجّانا لكلّ الأوروبّيّين فكانت في تزايد هي أيضا.

وعموما يتضح أنّ الفرنسيّين كانوا يجدون في الأرض الجزائرية عوضا عمّا كانوا يفتقدونه في بلدهم بسبب ما كان يحلّ بهم من كوارث سياسية وطبيعية. فحين انهزمت فرنسا في حرب السبعينات وافتقدت مقاطعتي الألزاس واللورين، كانت قد نقلت من هناك عائلات كثيرة إلى الجزائر ومنحتها أراضي ووفرت لها أسباب الاستقرار في الجزائر.

وفي سنة 1875م جاء إلى الجزائر مزارعوا الكروم من مقاطعة الميدي في فرنسا بسبب المرض الذي أصاب كرومهم ، ومن ثمة توسّع الأوروبيون في زراعة الكروم لكثرة أرباحها حلى حساب الحبوب التي هي الغذاء الاساسي للسكان. [19]

ولم يترتب على إقصاء الأهالي من الأراضي الخصبة نحو الداخل نقصان في المساحة المزروعة وحسب، بل ترتّب عليه أيضا نقصان في ثروتهم الزراعية والحيوانية.

وقد رافق ذلك تزايد في عدد السكان، حيث كانت الزيادة الطبيعية فيهم في ارتفاع، خاصة في 1936م أين بدأ العامل الديمغرافي يدفع بالجزائريين إلى الهجرة، لأنّ الانتاج الزراعي المحلي أصبح عاجزا عن إطعام كلّ السكان، إضافة إلى سيطرة الفرنسيين والأجانب الأوروبّيّين على التجارة الداخلية والخارجية والخدمات.

أمّا الصناعة الثقيلة في الجزائر، لم يكن لها وجود، فهناك صناعة غذائية وفلاحية تخدم الزراعة الأوربية، وورشات تصليحية وليست انتاجية. وهذا ما يوضّح لنا انعدام الصناعة القادرة على امتصاص اليد العاملة في الجزائر.

هذا بصفة عامة عن عامل الطرد في البلد المصدر للمهاجرين، فماذا عن عامل الجذب في البلد المستقبل لهم؟

وكما سبق، فقد بحثت الكثير من الدراسات المخصصة للمهاجرين حول ارتفاع الأجور في فرنسا، وجعلت منه سببا اقتصاديا هامّا لتفسر على ضوئه تفاقم الهجرة إلى فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى. ولا اعتراض على أنّ كون ارتفاع الأجور يمثّل عامل جذب هام، لكنه كان دون عامل الطرد قوة وتأثيرا. فالمهاجر لو وجد

عملا دائما في بلده بنصف الأجر الذي كان يتقاضاه في فرنسا، لكان العكس من ذلك، لأنّ ما يجذبه إلى فرنسا هو الأمل في إيجاد عمل دائم وليس ارتفاع الأجور.

إنّ الدافع الرئيسي للهجرة إلى فرنسا خلال الفترة المدروسة كان اقتصاديا، وكان عامل الطرد فيه طاغيا على عامل الجذب، نتيجة نظام اقتصادي شاذ أُقيم خصيصا لصالح الأقلية الأوروبية، حيث بدت لهم فرنسا مَهربا من الحالة المضنية في بلدهم.

ب- الدوافع العسكرية والسياسية

تؤدي العوامل الاقتصادية عادة إلى هجرات طوعية بخلاف العوامل السياسية أو العسكرية، فهي تؤدي إلى هجرات اضطرارية ومن أهمّ الأسباب العسكرية والسياسية:

- **قانون التجنيد الإجباري** في 03 فيفري 1912م: لقد اتخذ البرلمان الفرنسي من هذا التاريخ قرارًا بإجبار الجزائريين على الخدمة العسكرية لصفتهم رعايا فرنسيين. ومن أجل ذلك استخدمت الإدارة الفرنسية إزاء التجنيد الإجباري العديد من الوسائل كالدعاية والإغراءات المالية حتى تجنّد أعدادًا كبيرة منهم. وبمجرد أن وافق المجلس الوطني الفرنسي في 03 فيفري 1912م على هذا القانون، حتى انتشرت المظاهرات والعنف والاغتيالات والاصطدامات، بالإضافة إلى تكوين فرق إرهابية، ممّا أجبر الفرنسيين على إرسال النجدة كاحتياط ضد إمكانية حدوث الثورة.

وهكذا فقد أثار صدور هذا القانون الإجباري التعسفي سخطا عند الجزائريين واستنكارهم لهذا الاستبداد الجديد حتى أنّ بعضهم قال: "إنّ فرنسا إن كانت قد أخذت منّا أموالنا، فلن تستطيع أن تأخذ منّا أبناءنا" [20]. أمّا موقف المعمّرين فكان ضد هذا القانون.

إذ أنهم كانوا يعارضون أيّ أمر يكون في مصلحة الأهالي. وقد علّق أحد الفرنسيين حول الأسباب التي جعلت المعمرين يرفضون الخدمة العسكرية الإجبارية التي لا تكون إلّا بمرسوم، خاصة في ما يتعلق بالحقوق السياسية للأهالي. كما أنّ تجنيس الأهالي جماهيريا يعني النهاية للجزائر الفرنسية. وأنّ السياسة الاستعمارية الجادّة التي انتهجتها عام 1871م والتي حققت بها أهدافها، قد جعلت الجزائريين يعيشون في شبه مجاعة عام 1912م نتيجة انخفاض المحاصيل الزراعية وارتفاع الضرائب والإجراءات التعسفية التي طبّقها الحكام المحليون في الجزائر.

- **مشاركة الجزائريين في الحرب العالمية الأولى:** بدأت الهجرة الكبرى بمناسبة نشوب الحرب 1914-1918م، حيث جندت الحكومة الفرنسية ما استطاعت تجنيده لسد النقص الذي أصاب اليد العاملة بسبب الحرب، حيث بلغ عددهم 78000 مهاجرا. وأشهر هجرة جماعية كانت من مدينة تلمسان 1911م، فهاجرت مئات العائلات نحو سوريا، لهذا كان رد فعل المستوطنين هو تقديمهم شكوى لحرمانهم من هذه اليد العاملة الرخيسة، وطالبوا بمراقبة ووقف الهجرة، فجندت عشرات الآلاف من الجزائريين، وحشدت 80000 جزائري للعمل في المصانع، فدفعت الجزائر حينئذ ضريبة غالية.

ويعود نجاح تجنيدها للآلاف من الجزائريين لاستعمالها الإرهاب المتطرف والقمع الشديد والإغراءات، ومن بينها المنح المخصصة للمجندين وذويهم. [21]

وعموما فقد كانت الهجرة الجزائرية إلى فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى اضطرارية، لأنّ الدولة الفرنسية كانت قد نقلت تحت ضغط ظروف الحرب عددا كبيرا من الجزائريين يقدر بنحو 270000 جندي جزائري في الجيش وعمال في المصانع أو في الفلاحة. لكن بعد أن وضعت الحرب أوزارها، كان طريق الهجرة قد عبّد، وغدت الهجرة ظاهرة قائمة، ذلك أنّ الكثير من الجزائريين بعد تسريحهم من الخدمة بقوا في فرنسا، ومن عاد منهم إلى الجزائر ما لبث أن رجع ثانية إلى فرنسا. فضلا عن اكتشافهم الإنسان الأوروبي الذي يختلف في معاملته لهم عن المعمرين في الجزائر، فالمهاجر في فرنسا يشعر بالكرامة بدل القلق والتوتر والحرمان. أما الهجرة بالنسبة للشباب الذين يصبون إلى حياة تتّفق وروح العصر، فهم يعيشون حياة مليئة بالمغامرات والفرص.

ج- الدوافع التعليمية

ما يمكن قوله أنّ التعليم لم ينشط قبل الحرب العالمية الأولى، فقد اقتصر التعليم الثانوي والعالي على فئة قليلة من الشباب الجزائري، بسبب أنّ التعليم الابتدائي كان لا يؤدي إلّا إلى دراسات تكميلية مخصصة لتكوين المعلمين أو صغار الموظفين.

ومن الأسباب أيضا المصاعب المالية خاصة في التعليم الثانوي الذي لم يكن مجانا للجميع، فكانت المجانية تمنح للطلبة المتفوقين، كما أنّ طلبة التعليم الثانوي كانوا يُجمعون من بين العائلات الغنية كالملّاك والتجار الذين كانوا على استعداد لتعليم أبناءهم.

فلو كان التعليم الثانوي والعالي في متناول الجميع، لما كانت هناك هجرة الأحداث والشباب تمثل نسبة عالية. وهكذا تتظافر الدوافع الاقتصادية والعسكرية والتعليمية، وتلتقي في نقطة واحدة هي الضيق بالوطن المغتصب والهروب إلى فرنسا البلد الذي كان يخاله الجزائري أرض الحرية الموعودة.

5- إحصائيات مصادر الهجرة

ماهي المناطق التي كانت مصادرًا للهجرة؟ وفي أيّ المناطق كان يستقر الجزائريون في فرنسا؟

الواقع أنّ الولايات الثلاث حسب التقسيم الإداري في عهد الاحتلال كانت قد دفعت كلها بالمهاجرين إلى فرنسا، لكنها كانت تتفاوت من حيث أقدميتها في تصديرهم ومن حيث النسبة المصدرة أيضا. فأقدم الولايات الثلاث تصديرا وأقلها إمكانيات، هي أكثرها دفعا بأبنائها إلى فرنسا.

وإذا حاولنا أن نرتّب المناطق حسب أقدمية الهجرة فيها، تأتي في المقدمة مراكز تيقزرت وأزفون (بورقيدون) وبجاية. وهي مراكز عرفت الهجرة منذ أواخر القرن التاسع عشر، وتأتي في الدرجة الثانية مناطق مغنية وندرومة ومازونة ومناطق بلاد القبائل، وأخرى في الصحراء كبسكرة وتقرت، وتأتي في الدرجة الأخيرة منطقة النجود. [22]

أمّا المناطق القريبة من المدن الساحلية، فالهجرة لم تتّخذ فيها شكلا جماعيا، بل اتخذت شكلا انفراديا.

وإذا حاولنا أن نرتّب مناطق الهجرة حسب إمكانياتها وجدنا أشدها فقرا وأكبرها في نسبة المهاجرين، منقطة القبائل الكبرى في ولاية الجزائر. أمّا أكبر مراكز الهجرة وأهمّها في ولاية قسنطينة هي: بجاية، سطيف، وأهمها في ولاية وهران: مغنية وندرومة.

وتبيّن الأرقام المستقاة من مصادر رسمية أنّ الولايات الثلاث لا تصدر المهاجرين بالتساوي، بل تتفاوت نسبتهم من ولاية إلى أخرى، ذلك أنّ من بين 38974 مهاجرا إلى فرنسا سنة 1923م كانت ولاية الجزائر قد ساهمت فيه بأكثر من 20673 مهاجرا وكان معظمهم من دائرة تيزي وزو ببلاد القبائل الكبرى، حيث خرج معظمهم من البلديات الممتزجة* التابعة لتلك الدائرة. (23)

أمّا الدوائر الأخرى، الجزائر والمدية، مليانة والأصنام، فلم تساهم سوى بعدد 2577 مهاجرا، وتأتي ولاية قسنطينة وهي أوسع الولايات الثلاثة وأكثرها سكانا في الدرجة الثانية بعدد 15440 مهاجرا كان منهم من دائرة بجاية وحدها 11861، تتوزعه البلديات الممتجزة. أمّا ولاية وهران فكان عدد المهاجرين منها 1886 مهاجرا خلال سنة 1923م، وهو عدد ضئيل بالقياس إلى الولايتين السابقتين، حيث كان لمنطقة مغنية النصيب الأوفر، إذ ساهمت بعدد 1019 مهاجرا، أي أكثر من نصف العدد الكلي، وتليها ندرومة بعدد 480 مهاجرا، ثم رينو بعدد 164 مهاجرا، والعدد الباقي 223 مهاجرا تتقاسمه بغير تساوٍ البلديات الباقية، وعددها 33 بلدية بين ممتزجة وتامة.

وإذا كانت أشدّ المناطق فقرا في الجزائر هي الأكثر تصديرا للمهاجرين، فإنّ المناطق الأشدّ استجلابا لهم في فرنسا هي الأكثر صناعة وتعدينا في البداية. لكن ما كادت تحلّ سنة 1923م حتى انتشر المهاجرون في كلّ الولايات الفرنسية.

ويبيّن إحصاء سنة 1923م** أنّ المهاجرين كانوا يتواجدون بكثرة في باريس وضواحيها، وفي مناجم الشمال وبا دي كاليه Pas de Calais وفي الأردين Ardennes والأيزن Aisen والمارن Marne، ويتمركزون في الجنوب بمدن ليون Lyon وسان إتيان St-Etienne ومرسيليا Marseille، حيث كانت كثافتهم تزداد سنة بعد أخرى في المدن الكبرى وفي المناطق الريفية. وقد وصل عددهم في مدينة ليون إلى 4200 مهاجر، وفي ليبوش دي رون Les bouches du Rhône 2028 مهاجرا خلال 1923م، وأصبح عدهم 11000 مهاجرا في 1937م.أمّا في شرق فرنسا فقد عرفت ولاية الموزيل Moselle وولاية المورث والموزيل Meurthe et Moselleخلال سنة 1936م ارتفاعا ملحوظا في المهاجرين الجزائريين. في حين كان عددهم لا يتجاوز بعض المئات قبل تلك السنة، وفي غرب فرنسا كان عدد الجزائريين قليلا لا يتجاوز 3200 مهاجرا(24). والعدد الكلّي للمهاجرين في فرنسا خلال سنة 1939م كان يتراوح بين 73000 و74000 مهاجرا، وأكبر مركز كان المهاجرون يتجمّعون فيه هو باريس وضواحيها وتقدّر بعض المصادر عددهم بنحو 60000 مهاجرا خلال سنة 1928م(25).

6- مميزات الهجرة الجزائرية إلى فرنسا

إنّ أهمّ ما يميّز الهجرة الجزائرية إلى فرنسا بين الحربين أنها من النوع المؤقت، لأنّ مدّة إقامة المهاجرين كانت تتراوح بين 8 و18 شهرا، وكانت نسبة 50% منهم لا تتعدّى 8 أشهر، يعودون بعدها إلى الجزائر لحصد المحاصيل الزراعية وحرث الأرض قبل العودة من جديد إلى فرنسا. أمّا نسبة 25% منهم فكانت إقامتهم تستغرق 18 شهرا وعلى الأغلب لا يرتبطون بالأرض. وهناك من المهاجرين ممّن كانت إقامتهم تدوم

عدة سنوات كأبناء المسيلة، أمّا نسبة المهاجرين الذي يقصدون فرنسا بنيّة الإقامة الدائمة فقد قدرها السيد جيرولامي*** سنة 1930م بنحو 25%.

والواقع أنّ نسبة المهاجرين بنيّة عدم العودة لا تثير الدهشة إذا عرفنا أنّ أغلبيّتهم من فئة الشباب، وهذا ما يميّز الهجرة الجزائرية. ففي سنة 1938م سجلت مصلحة الحجر الصحي البحري أنّ 80% من المهاجرين كانت تتراوح أعمارهم بين 20 و40 سنة. وأنّ 20% أعمارهم فوق 40 أو دون 20 سنة. (26)

وتوجد ميزة أخرى تمتاز بها الهجرة خلال الفترة المدروسة، وهي اقتصارها على الرجال دون النساء. إذ يقدّر عدد المهاجرات الجزائريات إلى فرنسا سنة 1930م بنحو 20 امرأة فقط هاجرن مع أزواجهنّ، وإلى سنة 1939م لم يكن عددهنّ يتجاوز 40 امرأة، ولم تكن هجرتهنّ بقصد العمل، بل لمرافقة أزواجهنّ مساعدة لهم على الاستقرار.

ولعلّ تلك الرغبة في الاستقرار هي التي دفعت الكثير من العمال إلى التزوج بالفرنسيات، فقد جاء في تحقيق قام به جيرولامي سنة 1929م، أنّ المتزوجين شرعيا بالفرنسيات كانوا 700 مهاجرا، وأنّ المتزوجين بغير عقد شرعي كانوا حوالي 5000 مهاجرا.

أمّا الميزة الأخرى للهجرة الجزائرية، أنها تمت بغير تنظيم من السلطة الفرنسية، إذ لم تشرف على تنظيمها سوى في سنوات الحرب العالمية الأولى، وما عداها فالهجرة كانت تلقائية، يسافر الجزائريون إلى فرنسا على نفقتهم ويبحثون هناك عن عمل بوسائلهم الخاصة، وكان من نتيجة انعدام الإشراف، أن عانى الكثير من المهاجرين من محن التعطّل التي أدّت بالكثير إلى الانحراف. (27)

وعلى إثر ذلك تجسّدت مظاهر البؤس لدى المهاجرين الجزائريين، فالهجرة المؤقتة في نظرهم تجعل المهاجر الجزائري لا يفكّر في تنظيم نفسه سكنيّا، ولا في توفير وسائل الراحة والاستقرار. ومادامت لديه نيّة الرجوع إلى وطنه، فهو كان يفضل السكن الجماعي وتوفير النقود في انتظار فرصة العودة إلى الوطن.

7- موقف الحركات الاصلاحية في أوساط المهاجرين بفرنسا خلال الحرب العالمية الأولى

هل قام العمل الوطني في فرنسا على منهج عقائدي إيديولوجي؟ وهل تطورت عقيدته بمرور الحقبات التاريخية؟

إذا كانت الإيديولوجية هي جملة أفكار وتصورات لمفاهيم معيّنة في العديد من الميادين لدى جمعية أو حزب في شكل أهداف عقائدية، فلا بدّ من بلوغها بواسطة مذهب معين. لذلك فإنّ نجم الشمال الافريقي قد صرّح بإيديولوجيّته على لسان سكرتيره العامّ في مؤتمر بروكسل المنعقد ما بين 10-14 فيفري 1927م، فكان محتواها "استقلال الجزائر، جلاء جيوش الاحتلال الفرنسي، تأسيس جيش وطني، مصادرة الممتلكات الفلاحية الكبرى المحتكرة من طرف الإقطاعيين، عملاء الامبريالية والكولون والشركات الرأسمالية الخاصة وتسليمها إلى الفلاحين الذين انتُزعت منهم، احترام الملكية الوسطى والصغرى، إرجاع الأراضي والغابات المحتكرة من الدولة الفرنسية إلى الدولة الجزائرية، الإلغاء الفوري لقانون الأهالي، الإجراءات الاستثنائية، العفو عن المساجين والخاضعين للإقامة المحروسة، المنفيّين بقانون الأندجينا، حرية الصحافة والجمعيات والاجتماع، المساواة مع فرنسي الجزائر في الحقوق السياسية والنقابية، تبديل اللجان المالية المنتخبة بالاقتراع

المقيّد ببرلمان جزائري منتخب بالاقتراع العام، تكوين المجالس البلدية وتكون منتخبة بالاقتراع العام، أحقية التعليم في جميع المستويات، تأسيس المدارس باللغة العربية وتطبيق القوانين الاجتماعية والتوسع في السلفيات الفلاحية لصغار الفلاحين". (28)

فهذه المطالب تعكس موقف النجم من الوضعية في الجزائر، وهي وضعية كانت في صالح الأقلية الأوروبية المحتكرة لمصادر الاقتصاد ولا سيما الأراضي التي تعتبر المورد الوحيد للأهالي.

إنّ سرد المطالب بهذا الشكل المتداخل يظهر النقائص الموجودة في الجانب العقائدي، فكيف يمكن التوفيق بين المطالبة بالاستقلال التام وبانتخاب برلمان جزائري عن طريق الاقتراع العام في آن واحد؟. لذلك قد وردت مطالب جديدة لم تكن بالبرنامج الأول مثل حرية السفر إلى فرنسا وإلى سائر البلاد الأجنبية، وإبطال البلديات الممتزجة والمناطق العسكرية، واحترام العقيدة الدينية لدى المسلمين حسب تعاليم القرآن.

وقد حدّد البرنامج الثاني الصادر سنة 1933م بعض المطالب تحديدا أكثر وضوحا، كمطلب انتخاب برلمان وطني جزائري، بدل برلمان جزائري فقط، ولم يقتصر البرنامج الثاني على المطالبة بتأسيس مدارس باللغة العربية، بل تعليم هذه اللغة تعليما إجباريا، واستعمال الازدواجية في المكاتب الرسمية، ومن جهة أخرى فتح الأبواب أمام الجزائريين لتولّي كامل المناصب، مراعاة العدالة في توزيع الأجور، تمكين العمال بفرنسا من حقوقهم في المنح والعلاوات الاجتماعية. كما بيّنت المطالب نوعية مساعدة الفلاحين بتنظيم الريّ لعلاقته بالأرض ومدّ طرق المواصلات ومساعدتهم في سنوات القحط.

أمّا في إطار الجزائر المستقلّة، فالاستقلال ليس غاية نهائية، فهو وسيلة للحصول على إنجازات ذات طابع سياسي واقتصادي واجتماعي، لذلك وقع الجهر بالمبادئ الإيديولوجية قبل الوصول إلى مرحلة الاستقلال. لقد كان فهم النجم للاستقلال هو إعطاء الكلمة للشعب ليقرّر بنفسه المبادئ والنظم التي تحكم بمقتضاها البلاد...إلخ من المطالب المتلاحقة تدريجيا.

ممّا سبق يتضح تطور إيديولوجية النجم من الإعلان عن بعض مبادئها في 1927م، ثم عن جميع مبادئها في 1933م، إلى التصور التفصيلي لها سنة 1936م وقفا للمناخ السياسي في كلّ مرحلة. أمّا في عهد حزب الشعب الجزائري، فإنّ التصريح بالإيديولوجية أصبح خطرا عليه لتغيير الظروف، ولم يعد الكشف عنها ممكنا إلّا في ظروف تتعلق بمستقبل الحزب كما في المنافسات الانتخابية، لأنّ مثل هذه الإيديولوجية لا تتحقق إلا ابتداء من إعلان الاستقلال. لذلك أخذ حزب الشعب يركّز في مطالبه على الإصلاحات الفورية مع مراعاة الجو السياسي في الجزائر المغاير لجوّ فرنسا ونشاط التشكيلات الوطنية الأخرى.

وأخيرا فإنّ الوصول إلى الأهداف العقائدية يجعل رسم مذهب شيئا ضروريا، فالمذهب هو الطريقة الواجب استعمالها لبلوغ الهدف النهائي، والطريقة تشمل ميادين لا تقبل التجزئة. فالمذهب الكامل يستلزم فكرة وتنظيما ووسائل قائمة بذاتها وطريقة عمل. (29)

خاتمة

لقد عانى المهاجرون في فرنسا كثيرا في توفير المسكن والمأوى خاصة المهاجرون الأوائل، إضافة إلى المعاملة السيئة نظرا للظروف الأمنية، خاصة وأن الثورة في فرنسا قد فرضها العمال المهاجرون البسطاء.

ويمكن أن نجزم بأنّ السياسة الاستعمارية سعت لطمس مقوّمات الشعب الجزائري المتمثلة في فكرة العروبة والإسلام، لذلك كانت عملية الهجرة تتّجه قصد تحسين مستوى المعيشة المتمثّل خاصة في ضعف القدرة الشرائية وصعوبة الحياة وسط ظروف تميّزت في بعض المناطق بقساوة البيئة الصحراوية، دون إغفال عملية الاستعمار الفلاحي.

وعموما فقد أثرت الهجرة على المهاجرين الجزائريين إلى فرنسا، وانعكس هذا التأثير على عدّة جوانب منها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية.

غير أنّ هذه الانعكاسات لا تخفي الاهتمام بالدور الإيجابي للمهاجرين وردّ فعل السلطات على هذا الدور الوطني الذي يشكّل رافدا جوهريا في العمل الوطني ضد الاستعمار، والذي أوضح بأنّ مصير الهجرة أصبح يتغيّر حسب الظروف السياسية والاقتصادية لفرنسا، حيث تقيدها أحيانا وتشجّعها أحيانا أخرى.

المراجع والهوامش

[1]- René Gonnard: Essai sur l'histoire de l'émigration, paris, 1927, p_{22}.

[2]- Jean Jeacques Rager: Les musulmans algériens en France et dans les pays islamiques, Paris, 1950, p_{63}.

[3]- Jacques Augarde: La migration algérienne (hommes et migration), Paris, 1970, p_{32}.

[4]- Jean Jeacques Rager, op. cit, p_{64}.

[5]- عبد الحميد زوزو: الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين (1914-1939م)-الحركة المصالية، دار هومة، الجزائر في 2013، ص15.

[6]- Ferhat Abbas: De la colonie vers la province, Paris 1931, p_{31}.

[7]- Amar.Imache: L'Algérie au carrefour (la marche vers l'inconnu librairie de travail); Paris; p_4.

[8]- سعد الله، أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية، دار الآداب، بيروت-لبنان، 1969م، ص46.

[9]- عبد الحميد زوزو: مرجع سابق، ص17،18.

[10]- Emir Khaled: La situation des musulmans d'Algérie, Alger, 1924, p_{30}.

[11]- حزب الشعب الجزائري: مشكلة هجرة الجزائريين إلى فرنسا، باريس، 1951م، ص10.

[12]- بزيان سعدي: دور الطبقة العاملة في المهجر في ثورة نوفمبر 1954م -التاريخ السياسي والنضالي للعمال الجزائريين من نجم شمال إفريقيا إلى الاستقلال-، منشورات تالة، الأبيار الجزائر، 2009م، ص8.

[13]- الجيلالي، صاري: هجرة الجزائريين نحو أوروبا، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1954م، 2007، ص50.

[14]- محمد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية من 1830م حتى ثورة نوفمبر 1954م، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1985م، ص98.

[15]- Andrée Michell: Les travailleurs algériens en France, Paris, 1956, p_{167}.

[16]- Louis Chevalier : Le Problème démographique Nord-Africain, Paris, 1947, p_{42}.

[17]- Gouvernement général de l'Algérie (cent ans de colonisation française en Algérie), Alger, p_{14}.

[18]- René, LESPES: Pour comprendre l'Algérie, Alger, 1937, p_{31}.

[19]- ATLAS des colonies françaises, protectorats, et territoires sous mandat de la France, Paris, 1934, p_{15}.

[20]- حميدي أبو بكر الصديق. دراسات في الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2016، ص39.

[21]- المرجع السابق، ص42.

[22]- Muracciole: L'émigration algérienne, Alger, 1950, p_{31}.

* البلديات الممتزجة هي البلديات التي يقلّ فيها عدد الأوروبّيّين عن عدد الجزائريين، وحيث يكثر الأوروبيون تكون البلديات تامة الصلاحيات.

[23]- A.W.A: Expose de la situation générale de l'Algérie et conseil général, 1924, p_{535}.

** جاء في التحقيق الذي أجرته السلطة عن المهاجرين في فرنسا خلال 1923م أنّ عددهم بلغ 37762 مهاجرا، والواقع أنّ هذا الرقم لا يمثّل سوى ثلث المهاجرين في فرنسا.

[24]- عبد الحميد زوزو: مرجع سابق، ص28،27.

[25]- L.Massignon: Cartes de répartition des kabyles dans la région parisienne, IN, REI, 1930, p_{162}.

*** المسؤول عن مراقبة المهاجرين الأقارقة الشماليين في باريس، وتعتبر دراساته وتحقيقاته عن الهجرة ذات قيمة في نظرنا لمراقبته لها عن كثب.

[26]- حزب الشعب الجزائري: مشكلة هجرة الجزائريين إلى فرنسا، باريس 1952م، ص42.

[27]- عبد الحميد زوزو مرجع سابق، ص32.

[28]- المرجع السابق، ص71.

[29]- المرجع السابق، ص76،75.